حقيقة التحليل النحوي :

يُقال : حَلِلْتُ العُقْدَةَ أحِلُهَا حَلًّا أي : أفتَحُهَا[١]، فالتحليل في الأصل مصوغٌ من الحل [٢]، فمن حلل الشيء "أرجعه إلى عناصره المكونة له ، مادية كانت أو معنوية ، وذلك لأن التحليل في الأصل منهج عام يراد به تقسيم الكل إلى أجزائه ورد الشيء إلى عناصره "[٣].

إنّ معظم المعاجم تكاد تتفق في تفسير هذا المصطلح ، إذ أولت الجانب التفكيكي منه عناية واهتماما ، فاكتسب مصطلح التحليل بهذا التفسير معنى التفكيك والتقسيم وتقليص تماسك الشيء ،فتعود له مرونته ،وعلى إثرها يتمكن المحللُ من حصر مكوناته الأولية والكشف عن أجزائه.

إنَّ مصطلح التحليل يتلوَّن بلونِ المجال الذي يبحث فيه ، مما يمنحه قدرة النفاذ إلى ميادين العلوم الأخرى ، فلو نظرنا في عبارة(حلّلَ الأمرَ وأحَلَّهُ)، لتلمسنا فيها معنىً شرعيًا وهو إباحة الشيء وإزالة حرمتهِ ،وبذلك اكتسب لفظ التحليل معنىً اصطلاحيًا في الشرع[٤] .

" لعل أصعبَ شيء في بناء العلوم تحديد القاعدة المركزية الأولى في التحليل ، إذ إن القواعد الأخرى الصغرى ستتكئ عليها ، وتشتق منها ، وإذا كان الصوابُ فيها يعكسُ قوة العلم ، فإن الخطأ فيها ، ولو كان بسيطا مؤذنٌ بانهيار ذلك العلم "[٥]

ولا ريب أن النحو يتحرى سبيل العرب في خطابهم وكيفية تصرفهم فيه ،وما يتوارى خلف ذلك من أبعادٍ ثقافيةٍ وأخرى دينية وفكرية لا يخرج عنها ؛ لأنها ترشده إلى الثوابت العقلية التي انطلقوا منها ، فيحاول الكشف عن الأمور التي خضعوا لها في إقرارهم للقواعد اللغوية ، فالنحو لم يولد ولادةً عشوائيةً ذات نزعة مفارقة للتصور اللغوي ، بل كان مبعثه لغايةٍ وحكمةٍ مبتغاة ألا وهي : تتبع المسارات التي تتحكم في إنتاج المعنى من دون الاكتفاء بمعرفة المعنى فقط.

فهو علمٌ " يحاول اكتشاف النظام المضمر الذي يحدد صورة الإنجاز اللساني عند المتكلم العربي "[٦] وفقا لمعطياتٍ معينةٍ ، فاجتهد باستقراء جزئيات اللسان العربي ، فراح يترصد السمات الملازمة له ، وألقى الضوء على واقعه فلم يغض النظر عن الأصول المحددة لطريقة الأداء اللغوي ، بل تطلَّعَ من خلالها إلى المظاهر الدلالية التي شكلت القواعد اللغوية ، فعوَّلَ على الجانب الدلالي كثيرا في معرفة الأحكام النحوية.

ويمثل الدور الدلالي بالتحليل ، إذ كان " الدور الدلالي للنحو هو تحليل الكلام العربي لاستخراج الحكم النحوي الذي من خلاله سيصبح قاعدةً متبعة من قبل كل مستعمل للسان العربي "[٧]،

فهيمنت على النحو رؤية دلالية ذات طبيعة تحليلية تفسيرية يسعى من خلالها إلى تحديد الملامح التي تؤدي إلى استخلاص القواعد النحوية ، فوقف عند السنن المشتركة في لهجات العرب المتعددة، وراعى ذلك الاختلاف في نظره الدلالي ؛ لتلمس الأسباب ووضع العلل ، جاريا في تعقّب الحقائق بتتبع الدوافع الدينية واللغوية والتشريعية ، فلم يكن نشوء النحو نتيجة لدوافعَ علمية خالصة[٨] حرصت على صيانة بنية النحو العربي.

مما يعني أنّ " اللحن لم يكن العامل الوحيد الباعث على وضع النحو ، بل إنّ عوامل أخرى أسرعت في الدفع إلى هذه النشأة تمثلت في الحفاظ على النص القرآني وفهمه من أجل نقله إلى العالم دعوة ولغة "[٩]، فتجسد ارتباط النحو بالنص القرآني ارتباطا وثيقا لغة وحكما وشرعا .

"إذن فالنحو سبب وعلة لمعرفة المعنى الصحيح ... وليس معرفة معنى الكلام ولا معرفة المقصود منه أمرا كافيا لسلوك النهج العربي الصحيح في التعبير "[١٠].

فمعلوم أنّ للمتكلمين آلياتٍ ذهنية تمكنهم من بناء تركيب لغوي حامل لمعنى معين ؛ لذلك فإنّ من يبتغي التحقق من الصحة الدلالية لنص ما ، فلا بد له من معرفة المسارات التي تحكمت في إنتاجه ، كذا لغة البشر. فما هي إلا انعكاس عن العالم الذي يعيشون فيه ويتواصلون من خلاله ، لذلك فمن الضروري معرفة آليات إنتاجهم للكلم .

كما أن ما ليس له اعتبار معنوي ليس له وجود على مستوى التواصل اللغوي ؛ لذلك فـ " الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس ، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصوات وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجيب فيها ترتيب ونظم وأن يجعل لها أمكنة ومنازل وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك"[١١].

من هنا استأثر منهج التقليد النفسي في عدّ البنية الذهنية لمتكلم اللغة هي الأصل السابق للمعنى في الاعتبار ، وأنها عنصر مشترك بين متكلم اللغة في البيئة الواحدة ، وعليه ، فاللغة آية للفكر الكامن في النفس البشرية ، ومرآة تعكس التصورات الداخلية

المتولدة في النفس استجابة للحقائق في الواقع الخارجي ، فالذي يتكلم لغة معينة فإنه يمتثل لنظامٍ معرفي وفقا لطريقة ما في ذهنه[١٢].

من هنا يمكننا القول أنّ أصالة الفكر النحوي العربي " مرتبطة بالإطار الحضاري العربي الإسلامي وبالشروط التاريخية التي وجهت التفكير اللغوي العربي في المسار الذي سار فيه بكل الملابسات والأبعاد المعروفة "[١٣]،

وبهذا تكون مهمة النحو شاقة في البحث التحليلي ، إذ إنه يقوم باستقصاء وتقويم المعايير الهادية للمعنى ، فيعرض بدقةٍ ووصفٍ مفصَّل " للمورفيمات النحوية والمعجمية بدراسة أشكالها (الإعراب) وتأليفاتها من أجل تشكيل كلمات أو جمل (التركيب)...إنَّ النحو العام هو توافق الوصف البنيوي الذي يحوي ككل بنية عميقة وبنية سطحية تأويلا دلاليا للبنية العميقة وتمثيلا صوتيا للبنية السطحية "[١٤].

فهذا يعني أن مصطلح (التحليل النحوي) ، تندغم فيه آليتا عمل التحليل والنحو معا ، فالتحليل في مجال النحو يركن إلى التقصي في جزئيات العبارة ، واستنباط معانيها الضمنية ، والبحث في صياغتها اللغوية، وما يربط بين أجزائها من علاقات تركيبية ، فلا ينغلق إلى النظر في جانب واحد ، بل ينظر فيهما جميعا تحت ضوء واحد وهو السياق.

فالتعريف الاصطلاحي للتحليل النحوي هو "تمييز العناصر اللفظية للعبارة ، وتحديد صيغها ووظائفها العلاقات التركيبية بينها بدلالة المقام والمقال "[١٥]، وهذا يعني أنّ فرضية التحليل النحوي تقوم على أربعة معايير لكي تستوفي عملها ، الأول : المعجمي ، والثاني : الصرفي ، والثالث النحوي ، والرابع : السياقي ، وتؤثر دلالة أحدهما في دلالة الآخر من أجل تعيين المعنى .

إذ إنّ تحليل العبارة نحويا يستدعي القيام بتعريف الوحدات المعجمية والتشكيلية المركبة للعناصر اللغوية بعضها من بعض بدلالة المعطيات المتوفرة في المقام والمقال ، إضافة إلى ظواهر أخرى كالصوت والصورة والتكوين ، فيتخذ منها أساسا لتحديد أنماط هذه العناصر، وأنساقها، وخصائصها ووظائفها والعلاقات الوظيفية بينها ، وتبادل معانيها الإعرابية والصرفية خاصة والنحوية عامة ، و سير المحلل على ذلك المنهج في تحليل العناصر اللغوية وتمييزه للمعايير التي يقوم عليها وكيف تتداخل وظائفها ، يغنيه برؤية وافية عن النظم الذي يسود هذه العناصر وما تقوم به من وظائف في الإطار الصرفي والإعرابي ، من دون إغفال الإطار العام لهذه العناصر وهو السياق[١٦].

إذن فالتحليل النحوي عملية مسبوكة تتحد فيها أربع ركائز لتحقيق هدفه والخروج بنتيجة وهي : أنّ العناصر اللغوية بخصائصها ووظائفها ومواقعها خاضعة لعلاقات تركيبية تتفاعل فيما بينها وتتكيف مع ظروف المقام والمقال التي نشأت فيها ، فيكون ذلك كله تفسيرا وتبريرا لما هي عليه من نظام .

ركائز التحليل النحوي عند سيبويه :

أقام سيبويه تحليله النحوي على أساس نظري رصين اكتملت فيه المعالم الدلالية ، فكثيرا ما كان يستند على المعنى في تحليل الأداء اللغوي، وينظر إلى الجملة نظرة تنسجم مع المقام الذي وردت فيه ، مؤسسا بذلك لفكرة (مقتضى الحال) ، فلم يحصر تحليله في أُطُرٍ ضيِّقةٍ جامدة ، بل امتد نظره إلى الجوانب الاجتماعية ،ووظفها في النظر التطبيقي ، مدركا خصائص لغته الاجتماعية عارفا بواقعها ، فـ" كان يتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها وما يلابس هذا الاستعمال من حال المتكلم وموضوع الكلام ...وقد هداه هذا الاتساع إلى استكناه البنية الجوانية للتركيب النحوي "[١٧].

ولم يفصلْ في تحليله النحوي المظهر الدلالي عن المظهر التركيبي ، بل كان " يمزج بين المستويين - النحوي والدلالي - وينصهرا فيكونا معيارًا واحدًا "[١٨]، ووُفِّقَ في تَبَنِّي هذا الاتجاه " محتكمًا إلى مقياس الحُسن والقُبح وذوق العربية في صوغ أساليبها"[١٩]، فكان تقويمُه للتراكيب اللغوية قائمًا على مدى استحسان العرب لهذه التراكيب أو استهجانها ، إذ إنه كرر عبارات من مثل :" فأجره كما أجرته العرب واستحسنت " [٢٠]، وقوله : " فهذا كلام ضعيف قبيح فاعرف قبحَهُ "[٢١].

مما يدل على اهتمامه بالجانب الاجتماعي وأثره في التوجيه الدلالي للتراكيب اللغوية ، فقد أكّد على أنّ الذي " يسمح في جواز تركيب لغوي معين هو مدى استعمال العرب له قبل نقله إلى مجال الاستنباط القاعدي "[٢٢].

كما راعى سيبويه تفاوت مدارك الفهم لدى المتكلمين ، مما منحه القدرة على إمكانية التنوع في تعامله مع أساليب الكلام وفقا لمعيار المقدار ؛ وذلك لأن معرفة الناس باللغة ليست واحدة، ولكنها معرفة تقوم على المقدار ، فالله تعالى حين خلق البشر كتب الاختلاف والتنوع في مقادير النوع البشري ؛ لذلك لا مجال للقول بجعل الأفراد متساوية في جانب القواعد اللغوية [٢٣]،وسلك السبل التي تمهد إلى إيصال المعنى مطابقا للفكرة

المبتغاة ، وإطارها الذي استعملت فيه ؛ لذلك تحرى الدقة في انتقاءه التعابير اللغوية ليتلافى الهفوات في عملية الفهم .

من ذلك قوله : " و لا يجوز أن تقول : (بعت داري ذراعًا) و أنت تُريد بدرهم ، فَيرى المخاطب أنّ الدار كلها ذراع ، و لا يجوز أنْ تقول : (بعت شائي شاة شاة) ، وأنّت تريد : بدرهم ، فيرى المخاطب أنك بعتها الأول فالأول على الولاء ، و لا يجوز أن تقول : (بينت له حسابه بابا) فيرى المخاطب أنّك جعلت له حسابه بابًا واحدًا غير مفسر ، ولا يجوز : (تصدقت مالي درهمًا) ، فيرى المخاطب أنك تصدقت بدرهم واحد وكذلك هذًا وما أشبهه "[٢٤].

وهكذا يعرض في تحليله مشهدا شاملا لأمور محتملة في أحوال مختلفة ، معللا لها ، فيعود بالحدث الكلامي إلى مسرحه وظروفه التي أُنْتِجَ فيها ، فنراه يقول عن جملة (زيدا)[٢٥] مثلا : " ومثل ذلك أن ترى رجلا يريد أن يوقع فعلا أو رأيته في حال رجل قد أوقع فعلا ،.أو أخبرت عنه بفعل ، فتقول : زيدا ، تريد : اضرب زيدا أو أتضرب زيدا"[٢٦].

وبذلك رعى تفاوت مدارك الفهم مراعاة دقيقة . وكل ذلك تجنبا للبس والاشتباه الذي قد يواجه المخاطَب أثناء تلقيه الكلام ؛ لذلك نجده يصف من يتعمد اللبس والإلغاز بقوله " ومن أراد ذلك فهو ملغز تارك لكلام الناس الذي يسبق إلى أفئدتهم "[٢٧] لذلك لجأ إلى السياق في أكثر الأحوال تحاشيا للإلغاز واللبس.

ووفقا لهذا الفهم الذي نطق به سيبويه نستدل على أن ليس كل ما نطقت به العرب جائز في جميع المواضع وعليه ينبني " أصل من أصول النحو العربي ، يفيد أن صحة القياس لا تعني الموافقة المطلقة لاستعمالات العرب ، وأنّ الأخذ بهذا الإطلاق قد يؤدي إلى الالتباس في أمثال هذه المواضع "[٢٨]؛ لذلك أخضع سيبويه نظره النحوي للسياق باعتباره مكونا أساسيا في بناء النحو ، فالتزم بذلك أسلوب التحليل السياقي (contextaul analysis)[٢٩]، إذ بيّن من خلاله أنّ اللغة " لم تنفك عن ملابسات استعمالها، ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي ، كما تستمد من معطيات السياق الاجتماعي التي تكتنف الاستعمال اللغوي "[٣٠]، وهذا يؤكد على أنه كان مدركا لـ " اندغام اللغة في نظامها الداخلي الخاص بالحياة في مجالها الخارجي العام "[٣١].

فترتب على ذلك أنه انقاد في تحليله نحو التدرج ، مبتدأ بالبنية العامة للخطاب تلك البينة المتحدة في مضمونها الداخلي ،وما يدور حولها من مواقف تساير عملية الاستعمال المباشر للغة ؛ فتكون نظرته الأولية خاصة ببنية الخطاب ، و بالأحوال والظروف التي تحف عملية الخطاب ؛ وذلك للكشف عن تعالق استعمالاتها ، وتلمس آثارها أثناء التحليل ، ومن ثم يقوم بمعالجة كلًا منها على حدة في محاولة لحصر أدوارها في عملية الخطاب ، وأخيرا ينتهي عند جزئيات العبارة فيقف عند المعنى المعجمي للكلمة الواحدة.

وفي ضوء ذلك التحليل الدقيق صنّف سيبويه الشفرات المعجمية تبعا لمعطياتها الدلالية المستندة إلى علاقات التخالف والتغاير والتماثل الدلالي والتعدد الدلالي والتضاد ، وهو تصنيف حقلي للوحدات اللغوية(٣٢).

مما سبق يمكننا استخلاص رؤية علمية تؤكد على أنّ سيبويه لم يكن وصفه التحليلي عموميا عشوائيا مفترضا ، أو غير مؤسس على قاعدة منطقية ، بل تؤكد على أنه كان ملتزما قانونا كليا في تحليله انطلق فيه من الكل إلى الجزء ، فكان تحليله النحوي هرمي الفكرة و التصور ، إذ أسس له قاعدة شاملة وهي السياق بشقيه (اللغوي وغير اللغوي) ، وانبرى على إثره يحدد صحة النسق اللغوي أو خطئها.

فسيبويه أدرك أنَّ اللغة صيغ وأشكال يبدعها المتكلم أو المنشئ ، فتدب الحياة بكل مضامينها وأبعادها ، وليست عبارات مسكوكة تحمل الطاقات التعبيرية حتى لو كانت في المعجم ؛ ولهذا فكل استعمال لأية صيغة من صيغ اللغة في الإفراد والتركيب والابتداء جديد غالبا في بعده السياقي غير اللغوي ؛ لأن اللغة عرض وليست جوهرا (٣٣).

وفي المحصلة نستنتج أنّ سيبويه كان يركز في تحليله على التمييز بين المستعمل وغير المستعمل من الكلام ، ويحكم بصحته على أساس ذلك(٣٤).

وهكذا تبنى سيبويه في نظريته النحوية " نظرة فعلية للغة من حيث هي استعمال فعلي للمتكلم العربي وليست نظاما مفترضا لا علاقة له بالتحقق الفعلي "(٣٥).

السياق اللغوي [سياق الموقف]

نص سيبويه في تحليله النحوي على واحد من أهم معالم نظريته ألا وهو السياق اللغوي ، وإن لم يوثقه كمبدأ من مبادئها ، إلا أنه اهتم به اهتماما لم ينفصل عن اهتمامه

بالقضايا اللغوية الأخرى ، إذ قدّم أحكاما نحوية متساوقة مع المضمون الدلالي للتراكيب اللغوية ، خَلُصَ في إثباتها كحدود لغوية تبعا لاحتوائه دلالة السياق اللغوي من كلمات سابقة ولاحقة ، و إلمامه بمعطيات الموقف اللغوي من المتكلم والمخاطب والعلاقة بينهما وإدراك المخاطب للمعنى ، فمعلوم أن لكل كلمة معاني معجمية متعددة يختص كل منها بسياق استعمالي معين ، إلا إن دراستها في موقف خاص يضفي عليها دلالة اجتماعية " فالموقف والسياق هو الذي يحدد الدلالة الاجتماعية ويخصصها من الدلالة المعجمية ؛ ذلك أنّ التواصل قد يتم بين أفراد المجتمع عن طريق الدلالات الاجتماعية بغض النظر عن النظام اللغوي "[٣٦].

وهكذا قام سيبويه بتسخير عناصر السياق في تحديد دلالة النص اللغوي ، مما جعل تحليله للمعنى قائما على اتساق النظر للسياق اللغوي وسياق الموقف بأكمله لأجل بلوغ المعنى .

وبذلك نصل إلى المفهوم العام للسياق اللغوي وهو " ما يسبق الكلمة وما يليها من كلمات أخرى ، أي أنّه البيئة اللغوية المحيطة بالعنصر اللغوي ، بما تشتمل عليه من عناصر لغوية مختلفة تفيد في الكشف عن معنى الكلمة أو الجملة "[٣٧].

فيكون السياق بهذا المفهوم وجهًا لمضمون النص الداخلي ويمكن تسميته بـ" الإطار الداخلي للغة " [٣٨]، ولمّا كان السياق هو الإطار الداخلي للغة فإنه يتميز بخصائص الخطاب ذاته ؛ إذ يتصل بوضعية الخطاب بصفةٍ مباشرة ، فليس السياق هو حالة مجردة معزولة عن الإطار الذي ينجز فيه الكلام ، وهذا تفسير لتعدد السياقات ؛ لأنها تتعدد باختلاف وضعيات الخطاب [٣٩].

إذن يعد ذلك تفسيراً في كون السياق بمثابة الوجه لمضمون النص الداخلي ؛ إذ إنّه " يتوافق مع المحتوى الدلالي للجملة في اعتبار الحقائق الخارجية مقيدات للجملة وتخضع لها على نحو واضح "[٤٠] ؛ لأن الكلمات قبل دخولها في السياق تكون واسعة الأفق لا يحدها معنى معين ، وذات طاقة كامنة تقلب المعنى ، لا على التعيين فيبقى حائرا وغير قائم على اعتبار محدد ما لم تتحد مع كلمات أخر في سياق معين ينسجم مع موقف محدد .

وهكذا " استعان سيبويه على توضيح معنى التركيب بوصف الظروف المرافقة للتلفظ بالقول كوصف الظواهر الصوتية أو تحديد العلاقة بين المتكلم والمخاطب أو ذكر أسباب التلفظ بالقول إلى غير ذلك "[٤١].

فلم ينظر إلى الكلام في جزء من أجزائه ، ويتابع ذلك النظر ليحمله على المعنى، بل إنه نظر إلى الكلام بمكوناته السياقية والنصية ، فإن ذلك خير وسيلة للوصول إلى المعنى المراد من تلك الملفوظات وهذا ما وضحه الشاطبي بقوله : " لا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله ... فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده ، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد ، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه إلا بحسب مقصود المتكلم "[٤٢].

فقد كان سيبويه مدركا لأهمية السياق الاجتماعي في التحليل النحوي ، إذ يبدو ذلك بجلاء في أمثلته التي قصد فيها اعتماد الدلالة الاجتماعية العامة ، فاستقر بذلك البعد الدلالي الاجتماعي في التقعيد النحوي[٤٣].

وفيما يأتي عرض لأهم عناصر السياق اللغوي:

١. **المخاطب (المتكلم)** Destinateur :

إنّ العمَلية اللغوية لم تدخل حيّز التواصل والإبلاغ ما لم يكن المتكلم أحد عناصرها ؛ لأنه هو المنتج الأساس لها ، والمتحكم في توظيفها على الوجه الذي يريد ، إذ يُعَد المتكلم " أحد عناصر الموقف وتتعلق به وظيفة اللغة التعبيرية ؛ وذلك لأنّ النزوع لإنشاء النص أو الشروع في الكلام إنما يكون من المتكلم ويخضع بالدرجة الأولى لمراده وغرضه " [٤٤].

ولما كانت " اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "[٤٥]، فإنّ ذلك يقتضي أن يعبّر المتكلم عمّا يدور في ذهنه من معانٍ يبغي إيصالها إلى المخاطب ، ولكي يحقق ذلك في خطابه فلا بد له أن يوظف استراتيجياته الخاصة به ، التي تختلف من متكلم إلى آخر تبعا لكفاءته في نقل أفكاره بأساليب مختلفة فيعمد إلى عنصر لغوي من دون آخر بما يضمن تحقق المنفعة الذاتية لخطابه[٤٦].

وصياغة المتكلم لأسلوبه تنعكس سلبا أو إيجابا على فهم المخاطب للمعنى المراد ، فصياغته تخضع لمرجعيته الثقافية وشخصيته ومكانته وانتمائه الاجتماعي وعقيدته ، وعليه تختلف دلالات النصوص باختلاف المنتجين لها نظرا لاختلاف ما يحيط بهم من ظروف حالية خاصة [٤٧]؛ لذلك فإنّ فهم النصوص يعتمد على المتكلم ذاته ؛ لأنه الموجد

للمعاني في التراكيب اللغوية ، وهو الذي يمنحها تلك القيمة الترتيبية في نفسه ؛ لذلك فإنّ أي عملية لغوية تخالف هذا التصور فإنها بذلك تمحو المتكلم وتتجاوز دوره فيها [٤٨].

ولما كان المتكلم هو أحد عناصر سياق الموقف ، فإنه بهذه المكانة يكون ذا وظيفة مهمة في إنتاج السياق التواصلي ، إذ يستطيع المتكلم بإرادته في إبلاغ الآخرين أن ينتج السياق التواصلي، وذلك من خلال بنائه للسياقين المحلي والعام ، فبواسطتهما يتمكن من التواصل مع من يشاركه في المحادثة ؛ إذ يمتثل إلى ما توفره المعارف المشتركة من معلومات فيستغلها في عملية الفهم والتواصل ، وهو بذلك يكون مدخلا ضروريا إلى عملية الفهم للمخاطب .[٤٩]

فسيبويه في تحليله النحوي قد اهتم بالمتكلم اهتماما واضحا ؛ فأولاه النصيب الأكبر من السلطة في التوجيه ، فبلغ من اهتمامه بالمتكلم أن جعله أداة مسخرة لبلوغ المعنى ،وأحد مقتضيات الفهم الصحيح ، ولما كان المتكلم يعيش في مجتمع تربطه به صلة وثيقة ، فإنها بلا شك ستؤثر في لغته فتحيلها إلى واقعه الاجتماعي ؛ لذلك فإنّ سيبويه من هذه الناحية كان دقيق الملاحظة لمتكلمي اللغة الذي يقطنون بيئات تتباين فيها خصائص لهجاتهم فكان عارفا لمقاصدهم[٥٠] ، وإن اختلفت أساليبهم في الكلام.

وقد فطن سيبويه إلى منزلة المتكلم ومكانته الاجتماعية ،إذ نجد في الكتاب عرضا لمستويات مختلفة من المتكلمين ، فقد يكون المتكلم عنده شاعرا أو متعلما أو مخطئا أو ثقة ، وتعامل مع كل منهم بما ينسجم وواقعه الثقافي ، إلا أنه توجه كثيرا إلى المتكلم الثقة في تحليلاته وآرائه وأسند إليه معظم الظواهر اللغوية في العربية[٥١] .

فكان يترصد الصياغة التركيبية للدلالة اللفظية التي يجري فيها الكلام ، إذ تطالعنا في الكتاب عبارات تكررت فيها كلمات توحي إلى اهتمامه الواضح باللغة المنطوقة التي أقرّها المتكلم في لغته " فاللغة المنطوقة تشكل حيزا كبيرا من الكتاب ، ولم يستخدم سيبويه العبارة نفسها ، ولكن هناك العديد من الكلمات التي تخص تلك اللغة ، كقوله(تقول) و(تخاطبني)و(تحدث) وسواها "[٥٢].

وقد احتكم إلى المتكلم في مسائل كثيرة من الكتاب ، من ذلك قوله " وإن قلت (رأيت) رؤية العين أو وجدت فأردت وجدان الضالة فهو بمنزلة : ضربت ، ولكنك إنما تريد ب"وجدت" : علمت وب"رأيت" ذلك أيضا ، ألا ترى أنّه لا يجوز للأعمى أن يقول : (رأيت زيدا الصالحَ) "[٥٣].

ففي هذا النص يجعل سيبويه حال المتكلم مسوغا لبلوغ المعنى الحقيقي على حد قوله (ألا ترى أنه لا يجوز للأعمى أن يقول : (رأيت زيدا الصالح)، فلكي يكون المعنى في هذه العبارة واقعيا ، فلا بد من أن يبصر المتكلم ما رآه حقا ، لا أن يكون أعمى ،ومن ثم يكون كلامه مجازيا يأخذ دلالة (وجدت) ، فمعرفة المخاطب بحال المتكلم في هذا الموقف تكون قرينة تعين على إدراك مراده في أنه، هل كان قاصدا رؤية العين أو قاصدا أنه قد وجده؟.

وفي ضوء ذلك يوجه سيبويه بأن الفعل المضارع (رأيتُ) إذا أراد به متكلمه رؤية العين بمعنى(أبصرت) فهو متعد إلى مفعول واحد ، وإذا أراد به العلم الضمني فهو متعد إلى مفعولين لهما معنى العلم والحسبان [٥٤] ، كقوله تعالى ﴿ ((إنهم يَرَوْنَهُ بَعيْداً ونَرَىهُ قَرِيْباً)) [٥٥]و هكذا " يمتحن سيبويه الفعل (رأى)، فرأى له عمقين دلاليين : فهو يأتي على معنى الإبصار الحسي (رؤية العين) وعلى معنى العلم الضمني ، ويرى له أيضا معنيين نحويين ، فهو على معنى الإبصار يتعدى إلى مفعول واحد ، وهو على معنى البصيرة يتعدى إلى مفعولين ويفزع سيبويه في البيان عن فرق ما بين المعنيين إلى المجال الاجتماعي ،ويجرد من معطياته موقفا ساطع الدلالة هو موقف المتكلم إذا كان أعمى ، فيقول متسائلا : (ألا ترى أنه يجوز للأعمى أن يقول : (رأيت زيدا الصالح) "[٥٦].

وغير ذلك كثير من النصوص التي عقدها سيبويه في أبواب كتابه حاز فيها المتكلم معظم الإسناد والاهتمام في صياغة الأحكام النحوية منها توجيهه للمتكلم المتعلم ، إذ يقول " فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسّر "[٥٧]، وتوجيهه للمتكلم المخطئ الذي جسده بقوله " واعلم أنّ ناسا من العرب يخطئون "[٥٨].

أمّا المتكلم الثقة فقد أولاه عناية واهتماما في أحكامه النحوية ؛ إذ استند إليه في تحليل كثير من الظواهر والعمليات اللغوية التي تجري في اللغة والعادات التي يمارسها العرب في كلامهم كالحذف والإضمار والاختزال والاستغناء والاختصار إلى غير ذلك من القضايا النحوية[٥٩].

فعلى أساس الفهم والإفهام وإزالة اللبس بنى سيبويه كثيرا من القواعد النحوية، ممتثلا في ذلك إلى عادة العرب في الكلام ، هي الميل إلى الإبانة والإفهام ، تبعا لظروف المقام ومقتضى الحال ،فلم تكن العرب " تنوع الأسلوب وتأخذ بهذا هنا وبغيره هناك لتيسره على الفهم مرة وتشق عليه مرة أخرى ، ولتكشف له عن المراد حينا آخر ، كلا بل

كان همها الإبانة والإفهام أبدا ، ولكنها مع ذلك تستجيب لداعية المقام ومقتضى الحال"[٦٠].

٢ ـ المخاطَب Destinataire

إذا كان المتكلم هو المنتج للخطاب والمتحكم في توجيهه الدلالي ، فإنّ المخاطب يقاسمه ذلك الإنتاج وذلك التوجيه ، إذ يُراعى دائما في العملية اللغوية لإتمام التبليغ المؤدي إلى التواصل ، فهو " الهدف في أي عملية اتصال لغوية وتتعلق به الوظيفة الإفهامية ، وهو بهذا الاعتبار يتدخل بوجوده في بنية النص "[٦١]، ولكن ينحصر هذا التدخل بمدى توفر شروط الإدراك لدى المخاطب والمتواضع عليها سابقا ، فإذا ما توافرت فيه هذه الشروط تضاءلت استجابته في تلقي الخطاب [٦٢].

هذا وأنّ استجابة المخاطب للنص اللغوي تعني أنّه أدرك معناه تبعا لاستيعابه منحى المتكلم فيه ، ومدى خبرته في تأويل النص، فـ " مع كل ما يقال عن دور المخاطب في بناء النص فإنه لا بد من التأكيد على أنّ المخاطب يبدأ في فهمه وفق ما يخضع له النص عند بنائه من وجهة نظر المتكلم فيتأثر تفسيره أو تأويله من حيث هو نص أو لا بخبرة المخاطب باللغة تركيبيا ومعجميا وما تثيره الكلمات من إيحاءات "[٦٣] تكون باعثا على التأويل والتفسير الصحيح للكلام.

إنّ العملية اللغوية تمر بمرحلتين هما : التركيب والتفكيك ، فالتركيب كما عرفنا أنّ المتكلم قد تولى إنجازه أولا ، أمّا التفكيك فيستأنف عمله المخاطب بعد تلقيه الرسالة اللغوية ، وبذلك يكون وجوده في العملية اللغوية إيجابيا مكملا للدور الذي قام به المتكلم في التركيب [٦٤].

فالعملية اللغوية بهذه الآلية تقوم على مبدأ التعاونية القائم على التفاعل التواصلي ، فنجاحه مرهون بوجودهما معا ، فكلاهما مكمل لعمل الآخر ، وفي حال انتفى وجود أحدهما كتب الفناء على استمرار التواصل ؛ لذلك راعى سيبويه وجود المخاطب في العملية التواصلية ، إذ جعله مكونًا رئيسا من مكونات السياق اللغوي ،

فكان له في الكتاب " شأنٌ ذو أهميةٍ بالغةٍ ، فهو العنصر السياقي الرئيس الذي يخول المتكلم استعمال أساليب مختلفة في التعبير ، ويتيح له ممارسة أعراف لغوية اعتمادا على فهم السامع أو المخاطب الذي أَلِفَ هذه الأساليب، والذي يمتلك والمتكلم سليقة لغوية

مشتركة تعين كلا منهما على التفاهم والتواصل مع الآخر ، وتمنع من اللبس أو الخطأ في التفسير ... فكلمة (المخاطب) وردتْ في الكتاب ستّ وثمانون مرة ، تكشف عن نظرة سيبويه إلى هذا العنصر واتخاذه أداة لتحليل الكلام العربي ، وتفسير ظواهره اللغوية"[٦٥].

وهكذا كان سيبويه وغيره من النحويين يربطون بين أحكامهم وتعليلاتهم وتفسيراتهم وحالات المخاطب عن وعي بتلك الحالات وإدراك لها ؛ فاكتسب حال المخاطب بذلك اهتماما جعل النحويين يشيرون إلى علاقة تلك الأحوال بما هو مشترك بين المتكلم والمخاطب من أوضاعٍ اجتماعيةٍ ونفسيةٍ [٦٦] .

وقد فطن سيبويه في توجيه تحليلاته إلى تفاوت مدارك الفهم لدى المخاطبين ؛ لأن المخاطب يتميز عن غيره بأمرين الأول: التكوين الفطري ، والثاني : التكوين الثقافي الخاضع إلى مدى اكتساب المخاطب للثقافة في احتكاكه مع المجتمع الذي يعيش فيه ، فيحدد مرجعيته الثقافية ؛ لذلك تتباين معاني التراكيب اللغوية باختلاف مستعمليها من حيث الوضوح أو الغموض[٦٧].

وعليه كان سيبويه مراعيا لدور المخاطَب الذي يضاهي دور المتكلم في السياق اللغوي ، إذ نجد في الكتاب نصوصاً كثيرة تدل على ذلك ،منها قوله في " هذا باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة : وذلك قولك (ما كان أحدٌ مثلَك) و (ليس أحدٌ خيرا منك) و (ما كان أحدٌ مجترئا عليك) ، وإنما حَسُنَ الإخبار هاهنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه ؛ لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل ذلك .وإذا قلت : (كان رجلٌ ذاهبا) ، فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله ، ولو قلت (كان رجلٌ من آل فلان فارسا) حَسُنَ ؛ لأنه قد يحتاج إلى أن تُعْلِمَهُ أنّ ذلك في آل فلان وقد يجهله ، ولو قلت(كان رجلٌ في قوم فارسا) لم يحسن ؛ لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا فارس وأن يكون من قوم ، فعلى هذا النحو يقبح هذا ويحسن "[٦٨] .

ففي هذا النص يحكم سيبويه بجواز الإخبار عن النكرة بنكرة كما يشير عنوان الباب إلى ذلك الحكم ، ويرتضي له مسوغا يجوزه ألا وهو (مقدار حاجة المخاطب إلى العلم) فلو قال المتكلم (ما كان أحدٌ مثلك) حسن كلامه باطراد ؛ وذلك لأنه إنما أراد أن يخبر المخاطب ويقطع شكه في أن يكون أحدٌ مثلَ حاله أو فوقه ، فيحتاج إلى أن يعلمه ذلك لصرف اللبس والشك عن قلبه.

أمّا إذا قال (كان رجلٌ ذاهبًا) ، لم يصح قوله ؛ لأنه لم يضمنه علما يجهله المخاطب ، فيقبح هذا التركيب على هذه الصورة مع أنه مستقيم نحويا ، إلا أنه لم يسد ثغرة جهل المخاطب فيحقق الإفادة ، لكنه لو قال (كان رجل من آل فلان فارسا) حسُنَ قوله ؛ لأنه قصد إعلام المخاطب أنّ هناك رجلا من آل فلان فارسا ، أمّا إذا قال (كان رجل من قوم فارسا) من دون أن يعين من يقصد لم يحسن كلامه ، إذ لا غرابة أن يكون في الدنيا فارس وأن يكون من قوم .

وهكذا فعلى قدر تحقق الإدراك والعلم لدى المخاطب يحكم سيبويه على التراكيب اللغوية بالحسن أو القبح. وكل ذلك راجع إلى تصور سيبويه في أنّ " جواز الإخبار عن الشيء معقود بوقوع الفائدة للمخاطب ، وتعريفها ما يجوز أن يجهله "[٦٩].

٣ ـ العلاقة بينهما:

إنّ العلاقة بين المتكلم والمخاطب علاقة قوامها مبدأ التعاون الذي يتفاوت تبعا لتباين الصلة بينهما ومقدار السنن المشتركة التي تربطهما ؛ وذلك لأن العملية اللغوية بتكامل أطرافها تشكل منظومة إبلاغية متداخلة يتحتم فيها وجود سلسلة متكاملة من الاتفاقات المشتركة بين طرفي الإبلاغ[٧٠].

ويستحضرنا في هذا السياق قول الدكتور طه عبد الرحمن حين جعل من المعرفة المشتركة أساسا للعلاقة بين المتكلم والمخاطب التي تتمظهر في " جملة من التصورات والتقويمات عن الذات والغير والأشياء والمعاني .، يشترك فيها المتكلم والمخاطب مع جمهور الناطقين ، وقد نميز فيها أقساما أربعة : (معرفة لغوية) ، (معرفة ثقافية) ، (معرفة علمية) و (معرفة حوارية) " [٧١] .

إذ نجده قد حدد اللوازم الاتفاقية المشتركة بين طرفي العملية اللغوية بأربع قيم معرفية وعدها من وسائل الإقناع التبليغي بين المتكلم والمخاطب المؤدية إلى استمرار التواصل ؛ وذلك لأن " الإقناع هو أحد طرفي العلاقة بين رسالة هادفة إلى توجيه الفكر أو الاعتقاد ، وطرفها الآخر هو الاقتناع ، وهذان الطرفان متلازمان وجودا أوعدما ، فلا وجود للاقتناع دون وجود الإقناع "[٧٢] ؛ وذلك لأنّ الإقناع ينطوي على إرادة المتكلم في توجيه فكره أو اعتقاده إلى المخاطب ليجذب انتباهه ويستمليه سعيا منه لإقناعه ،وفي المقابل فإنّ المخاطب حين يتلقى توجيه المتكلم الكلام له ، فإنه يجتهد في فهمه وفقا

لتضافر القيم المشتركة بينهما ، ومن ثم يصل إلى مرحلة الاقتناع ، وبهذه الآلية فهما متلازمان وجودا أو عدما.

وهذا ما يفسّر اتِّسام التواصل اللغوي بالتفاعل المشترك ؛ إذ إنّ " التواصل باللغة قائم على التفاعل بين شخصين ينتج الأول منهما خطابا مبنيا على قواعد لغوية اتفاقية يتأسس عليها نظام التواصل في الجماعة اللغوية ولضمان خطية التواصل ...يكون على المتلقي أن يؤسس إدراكه على نفس المبدأ التواصلي الذي ينطلق منه المتكلم في ترتيب العناصر اللسانية الحاملة لمقاصده"(٧٣).

لذلك فإنّ أي كلام " لا يوصف بأنه خطاب دون وجود مخاطب به يصح علمه مما يراد منه وتلقيه عن المتكلم ؛ لأن قولنا خطاب يقتضي مخاطبا مواجها به ومخاطبة من باب المفاعلة ... وذلك مما لا يصح إلا من اثنين كلاهما موجودان "(٧٤).

وهذا يقودنا إلى القول بأنّ العلاقة بين المتكلم والمخاطب علاقة متصلة على مستوى بناء الملفوظ وتأويله ، وإن كان هناك انفصال ذاتي على المستوى الحسي ؛ وذلك لأن كلا منهما يحاول الاجتهاد ليحل محل الآخر وأن يصبح وإياه ذاتًا واحدة ، وهكذا تكون العلاقة بين المتكلم والمخاطب علاقة انفصال واتصال في نفس الوقت(٧٥).

وبهذا فـ" يكون بذلك إنشاء الكلام من لدن المتكلم وفهمه من لدن المخاطب عمليتين لا انفصال لإحداهما عن الأخرى ، وإنفراد المتكلم بالسبق الزماني ما كان يلزم عنه إنفراد بتكوين مضمون الكلام ،بل أن يشرع المتكلم في النطق حتى يقاسمه المخاطب دلالاته ؛ لأن هذه الدلالات الخطابية لا تنزل على ألفاظها نزول المعاني على المفردات في المعجم ، وإنما تنشأ وتتكاثر وتتقلب وتتعرف من خلال العلاقة التخاطبية "(٧٦).

ومما يحفّز على استمرار العلاقة التعاونية بين المتكلم والمخاطب قدرة السامع على حمل الكلام تبعا لقصد المتكلم ، مما يجعل السامع أمام موقف يتطلب منه إعمال النظر وبذل الجهد ليكتشف معناه ، ويعينه على ذلك اعتقاده أنّ المتكلم صادقا فيما يقول فيضطر إلى حمل كلامه على الظاهر ، وإذا كان غير واضح ففي هذه الحال يكون السامع مضطرا إلى إيجاد معنى آخر تتيحه له المعطيات السياقية التي قام بحشدها المتكلم في إنشاء خطابه(٧٧).

وعلى هذا النحو نظر سيبويه إلى العلاقة التعاونية بين المتكلم والمخاطب ، إذ كانت " (سعة الكلام واختصاره) أو اتساعه التي برزت في الكتاب تقوم على هذا المبدأ ،

الذي يصطلح غرايس (مبدأ التعاون) ، ومما ذكره في هذا السياق - ويمكن أن نعدّه قاعدة كبرى في الخطاب المتداول قوله"[٧٨]:

فأمّا الفعل الذي لا يحسن إضماره فإنّه أن تنتهي إلى رجلٍ لم يكن في ذكر ضربٍ ولم يخطر بباله ، فتقول : (زيدا)، فلا بد له من أن تقول له : (اضرب زيدا) ، وتقول له : قد ضربت زيدا ، أو يكون موضعا يقبح أن يُعَرَّى من الفعل ، نحو : أن وقد وما أشبه ذلك "[٧٩].

فالفعل ها هنا لا يحسن إضماره ؛ لأن المخاطَب به لم يجد ما يدل عليه ، فلو خاطبه المتكلم قائلا : (زيدًا) ، ولم يقدِّم عليه فعلا ، فإنّ المخاطَب لم يدر أيُريد منه إكرامَ زيد أم إهانَته أم غير ذلك [٨٠] ، فالسمة التعاونية في هذا الموقف تتبدى في إسهام المتكلم بإيجاد مفاتيح لما يستغلق منفذ الفهم لدى المخاطب ، وذلك بإزالة الغموض عن طريق ذكر الفعل الذي أمره به من ضرب أو شتم وإهانة.

ونجده أيضا قد حكم على كثير من المسائل اللغوية في الكتاب استنادا على ذلك منها قوله في " هذا باب ما ينتصب من الأسماء التي ليست بصفة ولا مصادر ؛ لأنه حال...واعلم أنّ هذه الأشياء لا ينفرد منها شيء دون ما بعده ، وذلك أنّه لا يجوز أن تقول: (كلمته فاه حتى تقول إلى في) ؛ لأنك إنما تريد مشافهة والمشافهة لا تكون إلا من اثنين ، فإنما يصح المعنى إذا قلت إلى في ، ولا يجوز أن تقول : (بايعته يدا)؛ لأنك إنما تريد أن تقول : (أخذ مني وأعطاني) ، فإنما يصح المعنى إذا قلت (بيدٍ)؛ لأنهما عملان "[٨١].

إذ نبّه سيبويه في هذا النص على أنّ هناك أشياء لا تنفرد لوحدها من دون أن يدعم وجودها شيء آخر يكمل المعنى الذي جاءت لأجله ؛ لذلك لا يصح أن تقول : (كلمته فاه) حتى تقول : (إلى في) ؛ لأنك قصدت المشافهة ، والمشافهة كما نعلم لا تتحقق من دون وجود شخصين يتبادلان الحديث ، وكذلك لا يجوز أنْ تقول : (بايعته يدا) ؛ لأنك تريد إعلام المخاطب بأنّه أخذ منك وأعطاك ، كناية عن بائعٍ ومشترٍ حصلت بينهما المبايعة ، ولكن يصح المعنى لو قلت : (بايعته بيدٍ) ؛ لأنك ضمّنتها معنًى : يدًا بيدٍ.

أمّا الحكم النحوي الذي استسقاه سيبويه من هذه الدلالة ، فيختلف باختلاف الموقف فإذا قال : (كلمته فوه إلى في) بالرفع ، فإنّه يقصد أنّه قد كلمه وهذه حاله ، أي : أنّه بالرفع قصد الإخبار عن حاله التي أضفى عليها معنى القرب والمشافهة وأنّه ليس

بينهما أحد ، أمّا إذا قال: (كلمته فاه إلى في) بالنصب ، فإنّه يقصد أنه قد كلمه وهذه حاله ، فإنه أراد به معنى (مشافها) والناصب له الفعل (كلمه) ، وهذا ما رآه البصريون ، في حين نصب الكوفيون (فاه) بإضمار (جاعلا) ، كأنّه قال : (كلمته جاعلا فاه إلى في[٨٢]).

وبهذا التصوير فإنّ المتكلم والمخاطب يتقاسمان الاشتراك في إنشاء الخطاب ، ذلك أنّ كليهما مدعوّ إلى الإسهام في إنتاجه بدءا من الإنتاج ، و انتهاءً بالاستماع، ومن ثم التأويل الصحيح للفهم خضوعا للسياق " فإنّ إنشاء مدلول القول في عملية التكلم ،و تأويل هذا المدلول في عملية الاستماع يتطلبان معا التوسل بسياقات مزدوجة ، فسياق الإنشاء يحتوي نصيبا من سياق التأويل وسياق التأويل يحتوي نصيبا من سياق الإنشاء ، وعلى قدر هذا النصيب المشترك يكون التفاهم ، حتى إذا عظم هذا النصيب ...ارتقى التفاهم إلى الفهم و التواصل إلى الوصال "[٨٣].

٤ ـ إدراك المخاطب للمعنى :

لعل أهم شيء يثري المخاطب بالمعنى في العملية التواصلية هو مقدار ما يحمله النص الكلامي من وضوح ، إضافة إلى غنى المخاطب بمعرفته عادة منتجه في الأداء اللغوي وعقيدته وشخصيته فـ " لشخصية المتكلم المعرفية والاجتماعية دورا في بناء الفرضيات التأويلية الذي يقوم به المخاطب مسبقا كعدةٍ يوظفها في عملية التأويل "[٨٤]، ومدى تضافر القرائن الأخرى المنسجمة مع سياق الموقف فكل هذه الأمور تؤثّر لا محالة في بناء النص وتشكيله ، ومن ثم فهي تثير في المخاطب هواجس البحث عن مكامن المعاني في التراكيب اللغوية بعيدا عن الخفاء والغموض.

وعلى كل حال فإنّ المخاطب حين يتلقى الرسالة اللغوية يتحتم عليه إعمال نظره في التفتيش عن المعنى ، وهو ما يصطلح عليه بـ (مبدأ الإعمال) فـ " جوهر هذا المبدأ هو أن السامع يميل إلى جعل الخطاب المُتَلَقَّى والقرائن تعمل باستثمارها إلى الحد الأقصى؛ لأنها المفتاح لمراد المتكلم وطبقا لهذا المبدأ يبحث المخاطب عن أيِّ مفتاحٍ يقوده إلى مراد المتكلم مفترضا أنّ للمتخاطبين مصالح مشتركة في التخاطب بينهما "[٨٥].

إلا أنّ الوسائل المؤدية إلى علم المخاطب بالمعنى تختلف تبعا لظروف الحدث التواصلي ، وأحوال المتكلمين والمخاطبين فقد يتحقق العلم وفقا للمسافة بينهما حيث تتم المحادثة في نسق اجتماعي معين ، وهذه المسافة تخضع أيضا لما تخضع له المحادثة من

اعتبار المسارات الثقافية والاجتماعية للمتخاطبين ، فقد يتحقق العلم فيما إذا اشتمل الحدث التواصلي على حركات غير منطوقة مثل : حركات اليدين والعينين التي ترافق عملية النطق ، فتتعاضد مع دلالة الكلام ، وبذلك يستوفي المخاطب المعنى[٨٦].

ولَرُبَّ سائلٍ يتساءل بِمَ تستدل على أنّ إدراك المخاطب للمعنى يعدُّ امتدادًا للسياق اللغوي ؟ و كيف تبرهن على أنه يؤثّر في بناء النص؟

وللجواب عن ذلك نقول : إنّ " المتكلم يستعين بعلم المخاطب ، فيحذف من الجملة ما يشعر أنّ حذفه لا يؤثر في المعنى الذي يريد إيصاله إلى المخاطب ، ويدرك أنّ النص يحتوي على قرائن تساعد المخاطب ، وتمكنه من كشف معناه وبيان ما حذف منه ، وتفهم النحويين لهذه الظروف انعكس على توضيحهم لهذه القواعد وتعليلهم لها بعلل لا تبتعد عن هذا الواقع والظروف المحيطة به "[٨٧].

لذلك قمنا بتضمين السياق اللغوي لقرينة (علم المخاطب) ؛ لأنها تخوِّل المتكلم على حذف بعض عناصره استغناءً بعلم المخاطب بالمعنى ، فتحققه يؤثر في بنية النص ، فيأتي ملائما لحال المخاطب ومدى حدسه في اكتساب ما حذف منه.

ونجد أنّ سيبويه في تحليلاته قد بنى كثيرا من الأحكام على أساس علم المخاطب بالمعنى ، فحذف واختصر واختزل من عناصر السياق اللغوي ما يشعر بأنّ المخاطب يعلمه أو يتوصل إليه بحدسه ، كما يتضح ذلك في قوله في (هذا باب متصرف رويدا) "

من ذلك قولك للرجل تراه يعالج شيئا : (رويدًا)... واعلم أنّ (رويدا) تلحقها الكاف وهي في موضع (افعل) ، وذلك قولك (رويدك زيدا) و (رويدكم زيدا) ، وهذه الكاف التي لحقت [رويدا] إنما لحقت لتبين المخاطب المخصوص ؛ لأنّ رويدا تقع للواحد وللجميع والذكر والأنثى ، فإنما أدخل الكاف حين خاف التباس من يعني بمن لا يعني ، وإنما حذفها في الأول استغناءً بعلم المخاطب أنّه لا يعني غيره "[٨٨].

فقد بيّن سيبويه في هذا النص أنّ (رويدا) تلحقها الكاف دائما ، إلا أنها قد تحذف في مواضع لم يعلل لها بقاعدة قياسية ، وإنما جعل (علم المخاطب) مسوغا لحذفها ، ففسر ذلك بأنّه لو رأى رجلا ،وهو يعالج شيئا أمامه قال (رويدا) ، بحذف الكاف ؛ وذلك لأنه خصص من يعني فلا يحصل لبس في المعنى ، أمّا إذا قال : (رويدك زيدا) أو (رويدكم زيدا)، ألحق بها الكاف ليبين المخاطب المخصوص ، فمعلوم أنّ رويدا تقع للمفرد وللجمع والذكر والأنثى فألحق بها الكاف ليصرف اللبس ويخصص المخاطب.

السياق غير اللغوي (سياق الحال) context of situation

هو حصيلة ما يحف الموقف اللغوي من إشارات ومعطيات تلائم المقام الذي سِيْقَ من أجله ؛ فتكون بذلك قرائن مقاميه توازي القرائن المقالية في إدراك مقتضى النص ، فلا يمكن للكلام أن يبرز فكرة من دون أن يرتبط بالسياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي ، وها هنا تتجلى أهمية السياق .

ونستحضر في هذا المقام قول إبراهيم أنيس حول التحام بنية الخطاب من خلال تعالق وظائف عناصره من السياق اللغوي وغير اللغوي و سياق الحال ، إذ يقول : " أليس الحوار بين المتكلم والسامع مرتبط الأجزاء ، يفسّر بعضه بعضا ، ويعين بعضه على فهم البعض الآخر ، وألسنا نستمد الفهم من تجاربنا السابقة حينا ومن سياق الكلام حينا آخر ؟ فأين الكلام المستقل بالفهم الذي لا يستعين فيه بكلام سبقه ولا بتجارب ماضية ولا بإشارات الأيدي وتعابير الوجوه في كثير من الأحيان "[٨٩].

لعل ذلك النص يعد من أصدق الأدلة على كون السياق برمته عبارة عن وظائف متعالقة يفتقر بعضها إلى بعض في أداء تلك المهام في العملية التبليغية ، فالكلام في حقيقته ليس عبارة عن مجموعة من العلامات الدالة على معانٍ مقصودة ، بل هناك مقيدات لهذه العلامات تحصرها في ظروف استعمال مناسبة للمقامِ الذي وردت فيه ؛ لأن " الوحدات الكلامية للغة الطبيعية ليست مجرد سلسلة أو خيوطا من صنع الكلمات ، فهناك مكون لا كلامي يُفرض دائما بالضرورة فوق المكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية"[٩٠].

فالمكون الكلامي يُفرض عليه دائما وجود المكون اللاكلامي فيستمد منه مظهرا دلاليا يتساوق مع مجريات النص اللغوي والظروف التي بني فيها ؛ لأنّ " اللغة بوصفها نتاجا للوضع (أو نظاما مجردا) غير كافية لفهم النصوص ؛ لأنّ استعمال الكلام يفترض عناصر غير لغوية في العملية التخاطبية "[٩١]،

وهذه العناصر هي : إرادة المتكلم في توجيه خطابه وفقا للحال التي هو فيها ، وإرادة المخاطب في تعيين المعنى وفهمه بما يتناسب وحاله أيضا ، و الاهتمام بمضمون الخطاب وذلك بانتقاء التعبير المناسب والاستعانة بملابسات الحال في إيصال المعنى ؛ مما يوجه بعض التحليلات استنادا على دلالة الحركة غير المنطوقة (الحركات الجسمية أو

الحواس) ، وائتلاف هذه العناصر في السياق هو ما يطلق عليه في المصطلح النحوي بـ (سياق الحال) .

ونتيجة لذلك فإنّ أهم ما يُلمح في سياق الحال بروز الوجه الاجتماعي الذي يمارسه المتكلم وسائر المشتركين معه في الحدث التواصلي ، ووضوح الاهتمام بالموقع الذي تشغله الكلمات من السلسلة اللغوية المعينة[٩٢].

وقد حرص سيبويه على هذا الجانب فأولاه عناية في تحليلاته النحوية ؛ إذ كان ينظر إلى الكلمة أو الجملة نظرة تتطابق مع محيطها الخارجي أو سياق حالها الذي جاءت فيه ، فيلتقي عمله بذلك مع أحدث النظريات اللغوية مع تباعد الزمن والشقة ، فما من جملةٍ حُذِفَ أحد عناصرها إلا ونجده يعلل لحذفها بدليلٍ من سياقها الكلامي ، فبلغ من اهتمامه بسياق الحال أن جعله فيصلا للحكم بصحة التراكيب أو خطئها .

كما يتضح ذلك من قوله :" وذلك أنّ رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمرٍ ، فقال : (أنا عبد الله منطلقا) ، و (هو زيدٌ منطلقا)، كان محالا ؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق ، ولم يقل هو و لا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية ؛ لأن هو وأنا علامتان للمضمر وإنما يُضمر إذا عُلِمَ أنّك قد عرفتَ منْ يعني، إلا أنّ رجلا لو كان خلف حائطٍ ، أو في موضعٍ تجهله فيه فقلت : (من أنت ؟) فقال : (أنا عبد الله منطلقا في حاجتك) كان حسنًا "[٩٣].

وهكذا فكلما اختلف الحال أطلق حكما يختلف عن الحكم الأول للمسألة نفسها ، فلم ترتبط تحليلاته النحوية بالقواعد الجامدة في قوالب ثابتة ، بل كانت تحليلاته حيوية ، وحيويتها تكمن في المعنى الذي جعله حاكما في توجيه تلك التحليلات ، إذ كان يربط في تحليله " الأفعال الكلامية المنجزة بالمقام الذي أنجزت فيه ، وذلك للوصول إلى التأويل الصحيح أو بعبارةٍ أخرى استعمل سياق الحال أداة لاكتشاف المقاصد التداولية أو المعاني التي ينشئها المتكلم "[٩٤].

وقد ذهب كارتر إلى أنّ الكلام عند سيبويه يمثل نمطا من أنماط السلوك الاجتماعي ؛ لذلك كان يصفه بالحسن أو بالقبح أو بالخبث كما توصف سائر أنماط السلوك الإنساني ،[٩٥] وبهذا عُدَّ "سيبويه بحقٍّ ...رائد النظرية السياقية ، إذ طبق عمليا وبإحكام جميع عناصر هذه النظرية مع أدَقِّ تفاصيلها ، ولم يترك شيئا مما عرفته الدراسات الاجتماعية الحديثة إلا ومارسه تطبيقا في كتابه "[٩٦].

١- إرادة المتكلم :

إنّ دلالة الألفاظ ليست لذواتها ،بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته"[٩٧]، فللمتكلم دور كبير من التأثير الدلالي الظاهر في السياق ، إذ هو القائم بتحديد أسلوب الكلام وتشكيل الأنماط التركيبية المناسبة لظروف المقام ، فعلى قدر وعيه بمجريات الحال يبني إرادته وذلك باتخاذ قراره في توجيه المعنى ، فتتحدد إرادته وفقًا لمقتضيات الحال .

وهذا يعني أنَّ إرادة المتكلم ترتبط ارتباطا وثيقا بالفعل الاجتماعي، فلا تقوم لوحدها من دون مسايرتها لما هو خارج عن السياق اللغوي ، فما ينتجه من كلام لا يمكن فصله عن دائرة إنتاجه من ظروفٍ وملابسات ، وهذا بكل بساطة يعني أنّه " لا يمكن الفصل بين الفعل الكلامي والفعل الاجتماعي في المحادثة ؛ إذ بهما تتكون عملية الاتصال، ومن خلالهما ينشأ الفهم والتأويل ،فلا يؤدي الكلام معزولا وحده قيمة الفعل التواصلي ، ولا وجود للفعل الاجتماعي خارج دائرة الاتصال "[٩٨].

وترتبط إرادة المتكلم بمدى اجتهاده في محاولة الوقوف عند الحال التي يكون عليها المخاطب ليتسنى له صياغة أسلوبه على وفق تلك الحال ؛ لذلك تتغير أساليب الكلام من متكلم إلى آخر تبعا لتفاوت أحوال المخاطبين ، فقد تستدعي الحال التي يكون عليها المخاطب الإطناب والتطويل لحاجته إلى البيان والتوضيح في موضعه ، وقد يستحسن الإيجاز لإلمام المخاطب بأطراف الحديث وموضوعه[٩٩].

وعليه تكون إرادة المتكلم عنصرا فاعلا في استقامة الخطاب ، كما أنّ الخطاب لا يعد حقيقيًا ما لم يكن مبعثُهُ إرادة كامنة في نفس المتكلم بتوجيهه إلى المخاطب ، فقد نصّ الدكتور (طه عبد الرحمن)على ذلك بقوله : إنّ الكلام المنطوق " لا يكون كلاما حقّا حتى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره ، وما لم تحصل منه هذه الإرادة فلا يمكن أنّ يعد متكلما حقا ، حتى ولو صادف ما نطق به حضور من يتلقفه ؛ لأن المتلقف لا يكون مستمعا حقا حتى يكون قد أُلقي إليه بما يتلقف مقصودا بمضمونه هو أو مقصودا به غيره، بوصفه واسطة فيه أو قلّ ، حتى يدرك رتبة المتلقي "[١٠٠].

إلا أنّ الخطاب قد يفهم من دون أن يقف المخاطب على إرادة المتكلم في معرفة معناه ، وذلك إذا كان عالما بالوضع الأصلي لاستعمال التراكيب اللغوية فيكون ذكرها مسوّغا كافيا لحملها على الظاهر ، وفي ذلك يقول الزمخشري في الكشاف : " قيل أنّ

الدلالة لا تتوقف على الإرادة ؛ لأنّا قاطعون بأنّا إذا سمعنا اللفظ وكنا عالمين بلا وضع ، نتعقل معناه سواء أراده اللافظ أو لا ، ونعني بالدلالة سوى هذا "[١٠١].

ونجد أنّ سيبويه قد رصد هذا الجانب في تحليله النحوي ، فمن تبعات ذلك أنّه صبَّ كثيرا من أحكامه النحوية بناءا على إرادة المتكلم ومقصده في توجيه المعنى ، وموقفه من حال المخاطب وظروف المقام ، من ذلك قول في " هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول : وذلك قولك (ضرب عبدُ الله زيدا) ... فإن قدّمتَ المفعول وأخّرتَ الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك : ضرب عبد الله ؛ لأنك إنما أردت به مؤخّرا ما أردتَ به مقدّما ، ولم تُرِدْ أنْ تشغل الفعل بأوّلَ منه ، وإنْ كان مؤخّرا في اللفظ ، فمن ثمَّ كان حدُّ اللفظ أن يكون فيه مقدّما ، وهو عربيٌّ جيدٌ كثير ، كأنهم [إنّما] يقدمون الذي ببيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى ، وإنْ كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم "[١٠٢].

فسيبويه في هذا النص صرّحَ بإرادة المتكلم حين قال(لأنك إنما أردت به مؤخّرا ما أردت به مقدّما) ،مؤكدا دورها في ثبات الوجه الإعرابي للعنصر التركيبي ، وإن تغيرت رتبته في الجملة ، فما دام المتكلم محددا قيمته المعنوية في نفسه ، فلا ضير إنْ تقدّمَ أو تأخّر ، فإنّ ذلك لا يؤثّر في وظيفته ، فلو قلت (ضرب عبد الله زيدا) ، فعبد الله فاعلا لـ (ضرب) ، كذا لو قدّمت المفعول وأخّرت الفاعل فقلت (ضرب زيدا عبد الله) بقي عبد الله فاعلا في المعنى ولم يتغير ، وإنْ تأخّرَ في اللفظ ، فإنما الذي تغير هو الرتبة.

إضافة إلى ذلك فإنّ المعنى لم يلتبس على المخاطب ؛ لدلالة الإعراب عليه ، كما أنه في تقديم المفعول ضربا من التوسع ،وهذا ما رآه السيرافي في تخريجه لهذه المسألة، إذ يقول : " أمّا قولهم : ضرب زيدا عبد الله ، فإنهم قدّموا المفعول على الفاعل ؛ لدلالة الإعراب عليه ، فلم يضمر من جهة المعنى تقديمه ،واكتسبوا بتقديمه ضربا من التوسع في الكلام ؛ لأنّ في كلامهم الشعر المقفّى والكلام المسجع ، وربما اتفق أنْ يكون السجع في الفاعل فيؤخرونه "[١٠٣].

وهذا يدل دلالة واضحة من دون أدنى شكٍّ أنّ ما يصوغه المتكلم من جملٍ وعباراتٍ تخضع خضوعا تركيبيا ودلاليا لحال المخاطب ، فـ " العبارة تتأثّر بما وعاه المتكلم من حال مخاطب ، يعني بحال المخاطب المنعكسة في نفس المتكلم ، وليس حال المخاطب في ذاتها ، فالمخاطب حينئذٍ يتحول إلى مثيرٍ من المثيرات التي تعمل في نفس مبدع الكلام وبمقدار تأثّره بهذا المثير ،ويتضح ذلك على عبارته وأصول صياغتها "[١٠٤].

ولعلّ سيبويه أراد من هذا كله التأكيد على حقيقة أنّ الكلام معنى ثابت في نفس المتكلم، سواء أقدم بعض أجزاءه أم أخّرها ، فإنّ ذلك لا يقتضي تغيرا في عمله ، مشيرا إلى أنّ التقديم والتأخير بمجمله قد يخضع لغرض كامنٍ في نفس المتكلم فقد يكون للاهتمام أو التخصيص أو الإبانة والتوضيح.

وبذلك نصل إلى حقيقة خلاصتها أنّ سيبويه افترض " أنّ القبول النحوي ما لا يتوقف على المعنى المعجمي لعناصر الجملة ، ولكنه يرتكن إلى نظامٍ عميقٍ يمتلكه المتكلم و به يستطيع أن يميّز جملةٍ من أخرى "[١٠٥].

٢ ـ إرادة المخاطب :

لا بدّ لكل خطابٍ من بواعث تحيله على اتجاهٍ دون آخر وتشحنه بالمعنى الذي يؤديه على صورته الواقعية ، وبذلك يقوم منتجه بتحري كل ما يؤدي إلى إنجاز هذه الصورة واستقصاءه ، ومن ثمّ مراعاته سياقيا ؛ لإيصال المعنى إلى المخاطب على أكمل وجه ، فيبث فيه إرادته وقصده بتوجيهه نحو مخاطبه ، وبهذا فإنّ الخطاب يقوم على قصد المتكلم "ويجب لتحقق القصد من الكلام أنْ يفهم المقابل ما تحاول أن توصله إليه وإلا استحال الأمر "[١٠٦].

وقد يعين المخاطب على إدراك معنى الخطاب العهد المتبادل بين المتخاطبين عن الحدث الذي يدور حوله الحوار ، فيقتضي ذلك قيام المخاطب بإرادته على ربط أي إسهام من المتكلم في هذه الأحوال بما استعملاه مسبقا ، فيفترض أنّه معهود بينهما ، وبعبارةً أخرى أنّ المبدأ الذي يعتمده المخاطب لفهم الخطاب هو الإشارة إلى أقرب مذكورٍ بينهما[١٠٧]

.فالمتكلم في عادته لا يبني كلامه في عزلة تامةٍ عن عالمه عامّة ، ومخاطبه خاصة ، بل إنه يقوم بفعل ذلك في ضوء الفرضيات التي تبناها كاستنتاج مسبق حول شخصية المخاطب الاجتماعية ، إضافة إلى مكانته اللغوية ،و استعداداته التأويلية والاستدلالية ، كما أنّ لشخصية المتكلم المعرفية والاجتماعية الدورَ الأكبرَ في تلك الفرضيات التأويلية التي يلتزما المخاطب كعدةٍ مسبقة يوظّفها في عملية التأويل [١٠٨].

وهذه كلها حجج ينحاز إليها المخاطب حين يتلقى الكلام ؛ ليدل على حسن استجابته له وذلك يعد غاية البلاغة ، إذ " يكفي من حظ البلاغة أنْ لا يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ،ولا يُؤتى الناطق من سوء فهم السامع "[١٠٩].

وهكذا " ففي كل عملية تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم ، تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل ، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة"[١١٠].

كما تختلف إرادة المخاطب في تعيين المعنى تبعا لحاله ، فقد يميل نحو المعطيات اللغوية فيقوم بتفسيرها لتوضيح المعنى المراد ، فيفضلها على المعطيات غير اللغوية ، وأحيانا يستحسن المعاني الصريحة أكثر من المفاهيم الضمنية ؛ لذلك تختلف إرادة المخاطب وطريقته في البحث عن المعنى من شخص إلى آخر[١١١]،

فـ" عندما يوضع الخطاب بين يدي القارئ أو السامع ،فإنّه يتعامل معه بطريقته الخاصة في الفهم ، مستعينا في ذلك بثقافته وتجاربه وأحواله الخاصة التي ينفرد بها دون غيره ، وإنْ كانت معظمها مشتركة بين أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه لغويًا ، وهو يعطي لفهمه صفة موضوعية إلى حدٍّ ما "[١١٢].

ففهمه له مرهون باعتقاده (مراد المتكلم) وعلى إثره يقوم بحمل كلامه على أنّه مفيد إلى أقصى حدٍّ ممكن ، وهو ما يصطلح عليه بـ(مبدأ الإعمال)[١١٣]؛ لذلك عمد سيبويه إلى افتراض هذا المعطى في التحليل النحوي وانطلق منه في كثير من القضايا النحوية معللا أو مفسّرا أو موجّها ، ومراعيا أهميته في العملية اللغوية .

ويتضح ذلك من قوله : " يقول الرجل : (أتاني رجلٌ) ، يريد واحدا في العدد لا اثنين ، فيُقال : (ما أتاك رجل) أي : أتاك أكثر من ذلك ، أو يقول : (أتاني رجل لا امرأة) ، فيُقال : (ما أتاك رجل) أي : امرأة أتتك ، ويقول : (أتاني اليوم رجل) أي : في قوته ونفاذه ، فتقول : (ما أتاك رجل) أي: أتاك الضعفاء ، فإذا قال : (ما أتاك أحدٌ) صار نفيا [عاما] لهذا كله "[١١٤].

ففي هذا النص استنطق سيبويه عبارة واحدة على ثلاث صور ، تعدد فهمها تبعا لتفاوت مدارك الفهم لدى المخاطبين ، ففي المرة الأولى أعطت العبارة دلالة العدد وفي المرة الثانية أعطت دلالة الجنس ، وفي المرة الثالثة أعطت دلالة القوة والنفاذ ، وفي

ضوء تعدد هذه الدلالات نلمح أثرا واضحا للمخاطب ، إذ إنَّ إرادته حالت معنى من دون آخر تبعا للحال التي هو عليها ، إضافة إلى كفاءته في اقتناص المعنى ، فسيبويه كان معتبرا وبقوة حال المخاطب وأثرها في تأويل المعنى ، واضعا لكل حال حدثا معينا يحتمل التفسير ، وبذلك ننتهي إلى القول بـ" أنّ الناظر في اللغة على وجه التقعيد والوصف ينتهي بالضرورة إلى اعتبار المتغيرات الخارجية التي تكتنف المادة اللغوية واستعمالاتها"[١١٥].

٣. مضمون الخطاب :

إنّ مضمون الخطاب عبارة عن هيكل دلالي تتشكل تركيبته من حشد مجموعة من الاتجاهات الاستدلالية التي تمتد من المتكلم إلى المخاطب إلى المعطيات اللغوية وغير اللغوية إلى المعنى المراد إبلاغه ، فتأتلف هذه العناصر فيما بينها وتتفاعل في الحدث التواصلي ، مكونة بائتلافها بنية دلالية منسبكة من تفاعل علاقاتها ، موظفة لتؤدي هدف الخطاب.

بما معناه أن المكونات اللسانية وغير اللسانية تتفاعل ،منتجة بنية لسانية معينة تختص بدرجة التفاعل الذي يحدث في كل عملية تلفظ ، وهذا التفاعل يكون باعثا لدراسة التسلسل في علاقاته الأخرى المؤثرة في عملية البناء لا الاقتصار على المظهر اللساني فقط وإن كان يعد أساسا في نسيج المحادثة ، فيقوم بدراسة الحركات المصاحبة للكلام ، التي قد تكون لها قيمة تفوق قيمة العناصر اللسانية في عملية النسيج[١١٦].

إلا أنّ مجمل هذه العلاقات داخل البنية وخارجها مبني على الإحالة[١١٧]، والمقصود بالإحالة : هي جملة العناصر التي لا تكتفي بذاتها عند تأويلها بل لا بدّ من الرجوع إلى الأصل الذي تدل عليه ، فهي تقوم على علاقة خاضعةٍ لقيدٍ دلالي ، وهو أنّ العنصر المحيل لا بُدّ له من تطابق خصائصه الدلالية مع خصائص العنصر المحال عليه[١١٨]؛ لتكتمل صورته فلا يتشتت معناه.

وبهذا التصور تكون الإحالة موازية لعملية التأويل في سلوكها النهج الذي تسلكه العملية التأويلية لاستنباط الدلالة ، فالتأويل آلية إجرائية ؛ لأنه بحثٌ عن طريقةٍ نكتشف بها منطقية نص من النصوص وذلك بتتبع مستلزمات الكلام السابقة واللاحقة ، بشرط أن يكون السامع منطقيا ومترابطا[١١٩].

وهذا يعني أنّ الخطاب تترتب فيه مجموعة من الامتدادات على مستويات معينة منها: على مستوى الألفاظ ، ومنها على مستوى المعاني ، والامتداد الآخر هو القرائن التي تسهم في تعيين مضمون الخطاب ، وتعمل على جعله في موضع يستثمر فيه ، وذلك من خلال (فحوى الخطاب) و(معقوله) ، وتقف به عند (مدارج) تعلق الألفاظ بالمعاني ، وتبحث عمّا يتوارى خلف (منطقها الظاهر)من منطق المعنى (الخبئ)[١٢٠].

إنّ الركن الأساس في جعل مضمون الخطاب ذا طابع يتسم بالغموض أو الوضوح هو المنتج ذاته ، إذ هو من يجتهد في انتقاء التعبير المناسب للمقام الذي يتحدث عنه مراعيا كل ما يؤدي إلى إنجاحه وتحقق هدفه تبعا لذكائه وكفاءته في استيعاب مجريات الأحداث ، فينتقي من التعابير ما يناسبها ، فيضفي بذلك بصمته على الخطاب ؛ لأنه لا ينتج " خطابه إلا باختيار العلامة المناسبة وتشكيل الخطاب بما يلائم سياقه ،ويعد الاختيار مزية ؛ لأن غياب هذه المزية يحرم الخطاب من اتصافه بالبعد الاستراتيجي ،

إذ يبدو من دونها أشبه ما يكون عملا إلزاميا لا خيار لمرسله فيه ؛ مما يؤذن بغياب عملية التأهيل اللازم لإنتاج الخطاب في كفاءته التداولية "[١٢١]، فتأتي أهمية المتكلم بتوجيهه مضمون الخطاب نحو المتلقي ، سالكا بذلك مبدأ (القصدية) في خطابه ، وهي غاية وظيفية يلجأ إليها المنتج لتوجيه خطابه نحو إفهام المخاطب[١٢٢]، وقد يأتي الخطاب في بنيته التركيبية مختصرا موجزا إلا أنّ في إيجازه مضمونا واسعا ، فكلما ضاق الكلام اتسع المعنى وهو أسلوب ألفناه في الكتاب لسيبويه تحت مسمى الحذف والاختصار والإيجاز[١٢٣]، وما ذلك إلا مجاراة لعادة اللغة فـ" اللغة جارية على التوسع كما هي جارية على التضييق ، ومن ناحية التضييق فُزِعَ إلى التحديد والتشديد ، ومن ناحية التوسع جُرِيَ على الاقتدار والاختيار "[١٢٤].

فعلى أساس ذلك يلجأ المتسع في كلامه إلى إفراغ جملة من الخانات التركيبية يتكون منها الخطاب ، وذلك من منطلق إحساسه بالضعف الملام بأن أنّ ما ذكر يمكن الاستغناء عنه من عناصر الكلام وذلك من دون أن يخل بالإفهام الذي يقوم عليه الخطاب، وإنّما يجري في سبيل الوقوف على غايات بلاغية يتيحها كالحذف والإيجاز[١٢٥].

إضافة إلى أنّ هناك أمورا فرعية تتصل بما سبق وهي : أنّ وضوح مضمون الخطاب أو غموضه متعلق بالكمية فـ" كلما ازدادت الصورة تفصيلا ازداد المضمون اشتباها ، وكلما ازدادت الصورة الفاسدة إجمالا ازداد المضمون إحكامًا "[١٢٦]، فإذا تمكن المتكلم من تغطية كل هذه الشروط نجح في إيصاله مضمون الخطاب إلى جمهور

المخاطبين ، الذي يقوم بدوره بإجهاد النظر للبحث عن المراد ، وفقا لافتراضات مسبقة متفق عليها بينهم للكشف عن محتواه الدلالي.

ونلحظ أنّ سيبويه في تحليله النحوي قد أتقن هذه الأمور ، إذ استعان بمضمون الخطاب والموضوع الذي يتحدث عنه في تجويز بعض القضايا النحوية كما يتضح ذلك في قوله : " وأمّا قول الناس كان البر قفيزين ، وكان السّمنُ منوين ، فإنّما استغنوا ها هنا عن ذكر الدرهم ؛لما في صدورهم من علمه ؛ ولأنّ الدرهم هو الذي يسعر عليه ، فكأنّهم إنما يسألون عن ثمن الدرهم في هذا الموضع كما يقولون : البر بستين ، وتركوا ذكر الكر. استغناء بما في صدورهم من علمه وبعلم المخاطب ؛ لأنّ المخاطب قد علم ما يعني"[١٢٧].

فلما كان مضمون الخطاب في هذا النص يدور حول البيع والشراء والتسعير وهو مضمون تجاري مستمد من لغة التجار ، وهي أمور معروفة بين الناس ؛ لكثرة تداولهم إياها في حياتهم اليومية ، كان حذف كلمة (الدرهم) من قولهم (كان البر قفيزين وكان السمن منوين) جائزا لكونه معروفا عند الناس فهم معتادون على التسعير بالدرهم، فيكون معروفا سواء صرح به أم أُضمر ، فمضمون الخطاب هو الذي سوّغ هذا الحذف [١٢٨].

٤ ـ الاستعانة بملابسات الحال :

يمثل النص اللغوي وعاءا تتجاذب فيه العناصر التي أسهمت في تكوينه ، وتأتلف فيه أحوال تلك العناصر مع بعضها ؛ لأجل شحن النص بالمعنى الذي يعكس ذلك الموقف على تمام صورته ، وهو ما يطلق عليه في المصطلح النحوي بـ(سياق الحال)، ويترتب على وجودها في الحدث الكلامي تخصيص وتحديد المعنى في النص اللغوي ، فتعمل على إضاءة النص وإزالة لبسه عن طريق الحواس البصرية والسمعية والذوقية وسائر حواس البشر الأخرى ، إضافة إلى الحركات والإشارات غير المنطوقة .

وإدراك البيئة اللغوية يعدُّ قرينة تغني المشاهد بالفكرة المراد إبلاغها ، وهو ما نسميّه بـ(الحال المشاهدة) ،هي الحال التي تولد فيها الهيئة التركيبية التي لا شأن فيها بالسياق اللغوي ، بل إنها تشمل ما يحيط بالشخص وما يلابسه من ظروف[١٢٩]، إذ تقوم بتعقب معنى الكلمة داخل سياقها المعبّر عنها من دون الاكتفاء بدلالاتها المعجمية ، فينفذ

إلى المعنى عن طريق " تحليل اللغة في ضوء رصد علاقاتها بالسمات والمتغيرات في العالم الخارجي الذي تجري فيه "(١٣٠)،

فالدلالة الحالية دلالة وظيفية لا تنظر إلى ظاهر اللفظ بمفرده ، بل تستعين بالحواس البشرية والحركات غير المنطوقة ؛ لأجل بلوغ المعنى .

وهذا ما وجدنا أنّ سيبويه قد أخذ به كثيرا في تحليله النحوي ، إذ لم يكتفِ " سيبويه بواقع النصوص في استنباط الأحكام ، ولكنه يلجأ أحيانا إلى فرض الفروض ، ثم يشرع لها إكمالا لصورٍ عقلية تتمثل في ذهنه ، أو تداركا لما فات النصوص أن تلم به"(١٣١).

فاللغة أحيانا عاجزة عن التعبير المؤدي إلى البيان السليم ، وهذا ما يجعل المتكلم في إنتاج خطابه أحيانا يلجأ إلى وسائل أخرى ليقوم بهذه الوظيفة ، قد تكون أحد هذه الوسائل الحركة الجسدية التي عادة ما تصاحب عملية التلفظ ،

وأبرز هذه الحركات وأهمها حركتان بارزتان دائما أثناء النطق هما: حركة اليد وحركة الرأس ، وتندرج ضمن حركة الرأس حركات العينين والحواجب والغمز والنظر(١٣٢)؛ لذلك تكون رؤية ملقي الخطاب لحظة التلفظ مؤذنة بوصول المعنى أسرع من الاكتفاء بسماعه من دون رؤيته ، لما في الرؤية من إيحاءات للمعاني المقصودة ، فمشاهدة ملامح الوجه وهي تتغير أثناء النطق توحي بالمعنى الذي يقصده المتكلم ، وكذلك تغير حركات اليدين حين الانفعال في الكلام ، إذ "تمثل حركة اليد أهمية كبرى في تعيين معنى الملفوظ ، فيستخدم المتكلم يده للدلالة على بعض المعاني المصاحبة لعملية التلفظ "(١٣٣)

أما استمالة ذهن السامع فقد تكون عند رفع الصوت للتنبيه على أمرٍ هامٍ أو خفضه للتأمل فيه والوقوف عنده ، إضافة إلى نظرات العيون التي تجعل المتلقيَ ينجذب نحو الخطاب ويصغي إليه بتركيز ، إلى غير ذلك من الأمور التي تسهم في تلمس المعنى الدقيق للكلام ، ولا يحصل ذلك كله من دون افتراض مسبق بين المتكلم والمخاطب على استعمال هذه الوسائل في تلك المقامات ،

ومن ثم فهو حين يشهدها في موقف ما فإنه يكون مدركا ما يعنيه المتكلم ، وها هنا تبرز السمة التعاونية في الخطاب ، مما يؤكد اعتمادها حتى في الحركات غير اللغوية، فحواس المخاطب أيضا تكون معينا لمدلول الفكرة التي يُراد إبلاغه بها ، فالسمع والبصر يغنيان عن ذكر بعض الألفاظ التي لا طائل من ذكرها "(١٣٤) ؛ لذلك عدّ ابن جني أنّ الكلام

لا يرتقي درجة التواصل من دون رؤية من يتكلمه ، فقال : " أنا لا أُحْسِن أنْ أُكَلّم إنسانا في الظُلمة "[١٣٥] .

نستشف مما سقناه أنّ الحذف أو الإضمار أو الاختزال الوارد في التراكيب اللغوية ممكنا إذا ما استعنا بملابسات الحال لتلك التراكيب .

وبذلك نصل إلى أنّ وجود هذه الملابسات هو وجود وظيفي تكميلي لوظائف التراكيب ، إذ نلاحظ لها أثرًا واضحا في " توجيه الحذف في التراكيب اللغوية المختلفة ، وهي قرينة سياقية غير لغوية تبحث في تفسير الظاهرة بحسب رؤية الحال ومتطلبات السياق الاجتماعي ،

وقد اعتمد سيبويه هذه القرينة بعناصرها المختلفة في توجيه الحذف الذي يطرأ على بنية التراكيب النحوية ، وكشف عن جانب حيوي تجب مراعاته في التوجيه النحوي، بل كشف عن عمق النظر في التحليل النحوي ، وهو ما لزمته الدراسات اللغوية الحديثة وعولت عليه في التوسع في التحليل "[١٣٦].

إذ تطالعنا في الكتاب عناية بارزة لسيبويه في اعتماد هذه القرينة في توجيه قضايا نحوية كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال قوله :

"وذلك أنّك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص ، فقلت : عبد الله وربي ، كأنّك قلت : ذاك عبد الله أو هذا عبد الله ، أو سمعت صوتا فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت : زيدٌ وربي ، أو مَسَسْتَ جسدًا ، أو شَمَمْتَ ريحًا فقلتَ : زيدٌ أو المسك ، أو ذقت طعاما فقلت : العسلَ ، ولو حُدِّثْتَ عن شمائلَ رجلٍ فصار آيةً لك على معرفته لقلت : (عبد الله) ، كأنَّ رجلا قال : (مررت برجلٍ راحمٍ للمساكين، بارٍّ بوالديه)، فقلت: (فلانٌ واللهِ) "[١٣٧].

ففي هذا النص نبّه سيبويه على جملةٍ من الإشارات والعناصر غير اللغوية التي توحي إلى المعنى وإدراك المقصود ، إذ جعل من الحواس البشرية دلائل تعين على معرفة الشيء وإدراكه ، مثل حاسة البصر في معرفة الشخص ، وحاسة السمع في معرفة صاحب الصوت ومن ثم معرفته بذاته ، أو حاسة اللمس والشم والذوق فكلها قرائن تعين المخاطب على المعرفة ، كما نلمح في قوله " ولو حُدِّثت عن شمائل شخص فصار آية لك على معرفته " إشارة مهمة نبه من خلالها على العهد المتبادل بين المتخاطبين.

الـهوامش

(١)ينظر مقاييس اللغة مادة [حلل] ،٢ / ٢٠ .

(٢)ينظر لسان العرب : مادة (حلل) ، ١٢ / ٩٧٦.

(٣)التحليل النحوي أصوله وأدلته : ١٢

(٤)ينظر التحليل النحوي أصوله وأدلته : ١٤.

٥) التفكير العلمي في النحو العربي : ١٠٧_١٠٨

(٦)الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي : ٢٣.

(٧) المصدر نفسه : ١٢ .

(٨) ينظر العربية وعلم اللغة البنيوي : ١٥.١٧

(٩) مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين : ٧٧

(١٠) المعجب في علم النحو : ٤

(١١) دلائل الإعجاز : ١ / ٦٠

(١٢) ينظر : مدخل إلى الدلالة الحديثة : ٤١.٤٤

(١٣) مدخل إلى فلسفة العلوم : ١٥٤

(١٤)التحليل النحوي وتوجيه الدلالة ، قراءة في كتاب الأمالي لابن الحاجب : ٢٤

(١٥)التحليل النحوي أصوله وأدلته : ١٥.

(١٦)ينظر التحليل النحوي أصوله وأدلته : ١٥.

(١٧)نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث : ٨٨

(١٨)الدلالة والتقعيد النحوي دراسة في فكر سيبويه : ١٥١

(١٩)نظرية القرائن في التحليل اللغوي : ١٠

(٢٠)الكتاب : ٢/١٢٤

(٢١)المصدر نفسه :٢/١٢٤.

(٢٢)الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي : ٣٣٥.

(٢٣)ينظر اللسانيات القرآنية بحث في ابستمولوجيا اللسانيات عند الدكتور أحمد العلوي : ٢٨
(٢٤)الكتاب : ١/٣٩١.
(٢٥)ينظر أثر السياق في توجيه المعنى في كتاب معاني القران للفراء(ت ٢٠٧ ه) ١٧
(٢٦)الكتاب : ١/٢٥٧.
(٢٧)المصدر نفسه : ١/ ٣٠٨.
(٢٨)الخطاب الاشتباهي في التراث اللساني العربي : ٤٠٨
(٢٩)ينظر الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه : ٣٠٤
(٣٠) نظرية النحو العربي : ٩٠ . ٩٢.
(٣١) المصدر نفسه : ٩٠.
(٣٢) ينظر البحث الدلالي في كتاب سيبويه : ١٨٠
(٣٣) رؤى لسانية في نظرية النحو العربي : ١٤١
(٣٤) ينظر: الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه : ٣٩٢.
(٣٥) منهجية سيبويه في البحث اللساني : ٧٩
(٣٦)الدلالة السياقية عند اللغويين : ٤٨
(٣٧)التفكير الدلالي في الدرس اللساني الحديث الأصول والاتجاهات : ٤٣
(٣٨)الدلالة السياقية عند اللغويين :٥٣ .
(٣٩)ينظر التداوليات علم استعمال اللغة : ٣٦٣.
(٤٠)مفهوم الجملة عند سيبويه : ١٩٥.
(٤١)التركيب في كتاب سيبويه نظام الجملة وأصول التقدير : ٥٠٤
(٤٢)دراسة المعنى عند الأصوليين : ٢٣٢
(٤٣)ينظر رؤى لسانية في نظرية النحو العربي: ١٥٢ . ١٥٣.
(٤٤)دلالة السياق : ٦٠.
(٤٥)الخصائص : ١/ ٣٣ .

(٤٦)ينظر قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني : ٦١ ، رسالة
(٤٧)ينظر سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة : ٦٢
(٤٨)ينظر قضايا إبستمولوجية في اللسانيات : ٢٣٠
(٤٩)ينظر الوصائل في تحديد المحادثة ، دراسة في استراتيجيات الخطاب : ٢٠٢ـ٢٠٣.
(٥٠)ينظر سياق الحال في كتاب سيبويه : ٦٧.
(٥١)ينظر أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه مع دراسة مقارنة بالتراث النحوي والمناهج اللغوية الحديثة : ١٧
(٥٢)الدلالة والتقعيد دراسة في فكر سيبويه : ٢٢٨.
(٥٣)الكتاب : ١/٤٠.
(٥٤) ينظر شرح كتاب سيبويه للسيرافي : ١/٢٨٢
(٥٥) المعارج : ٦ـ٧.
(٥٦) نظرية النحو العربي : ٩٤.
(٥٧) الكتاب : ١/٢٦٦.
(٥٨) المصدر نفسه : ٢/ ١٥٥.
(٥٩) ينظر أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه : ٢٠.
(٦٠) سيبويه إمام النحاة ، علي النجدي ناصف : ١٦٢
(٦١) دلالة السياق : ٦٠٥.
(٦٢) ينظر الخطاب الشرعي وطرق استثماره : ١٩
(٦٣) دلالة السياق : ٦١٢.
(٦٤) ينظر المعنى وظلال المعنى : ١٥٥.
(٦٥) سياق الحال في كتاب سيبويه : ٧٨ ، وينظر الدلالة السياقية عند اللغويين : ١٠٩.
(٦٦) ينظر مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية في كتاب سيبويه : ٢٨.
(٦٧) ينظر المعنى وبناء القواعد النحوية : ٨٠

(٦٨)الكتاب : ١/٥٤.

(٦٩)شرح كتاب سيبويه : ١/ ٣١٧.

(٧٠) ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه : ١٨٨.

(٧١) التكوثر العقلي : ١٥٢.

(٧٢) اللسانيات (المجال و الوظيفة والمنهج) : ٧٠٠ . ٧٠١

(٧٣)الخطاب الاشتباهي في التراث اللساني العربي : ٦.

(٧٤)التقريب والإرشاد ، للباقلاني : ١ / ٣٣٥

(٧٥)ينظر التداوليات علم استعمال اللغة : ١٣٥ .

(٧٦) أصول الحوار ، طه عبد الرحمن : ٤٥

(٧٧) ينظر علم التخاطب الإسلامي : ٧٥ . ٧٦.

(٧٨) مفهوم الجملة عند سيبويه : ١٨٩.

(٧٩) الكتاب : ١/٢٩٦ . ٢٩٧.

(٨٠)ينظر شرح كتاب سيبويه : ٢/١٩٤.

(٨١)الكتاب : ١/ ٣٩٢.

(٨٢)ينظر شرح كتاب سيبويه : ٢/٢٨٢ . ٢٨٣

(٨٣)التواصل والحجاج ، درس افتتاحي : ١٧.

(٨٤)التداوليات علم استعمال اللغة : ١٣٤.

(٨٥)علم التخاطب الإسلامي : ١٠٤ . ١٠٥.

(٨٦)ينظر دلالة السياق : ٦١٨ . ٦١٩.

(٨٧)مراعاة المخاطب في النحو العربي : ٦٥.

(٨٨)الكتاب : ١/٢٤٤.

(٨٩)من أسرار اللغة : ٢٦١ .

(٩٠)أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى

. http://arabeagreg.ahlamontad.com./c16-categorg:

(٩١)علم التخاطب الإسلامي : ٩٧.

(٩٢)ينظر نظرية السياق والموقف الكلامي بين اللغويين العرب والأجانب : ٥٤

(٩٣)الكتاب : ٢/٨٠ . ٨١ .

(٩٤)ظاهرة الاتساع ومقاصدها التداولية عند النحاة العرب الأوائل من خلال كتاب سيبويه : ٢١

(٩٥)ينظر سياق الحال في كتاب سيبويه : ٥٢،

(٩٦)الدلالة والتقعيد دراسة في فكر سيبويه : ٤٣٠.

(٩٧)الإحكام في أصول الأحكام ، للآمدي :١/١٠٤

(٩٨)الوصائل في تحديد المحادثة ، دراسة في استراتيجيات الخطاب : ٢٦٧.

(٩٩)ينظر مراعاة المخاطب في النحو العربي : ٣٣١.

(١٠٠)التكوثر العقلي : ٢١٤.

(١٠١)كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : ١/٧٩٢

(١٠٢)الكتاب : ١/٣٤.

(١٠٣)شرح كتاب سيبويه : ١/٢٦٣.

(١٠٤)دلالة التراكيب دراسة بلاغية : ١٦٧

(١٠٥)عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي : ١٥٧

(١٠٦) مفهوم الجملة عند سيبويه : ٣٠٤.

(١٠٧) ينظر علم التخاطب الإسلامي : ٩١.

(١٠٨) ينظر التداوليات علم استعمال اللغة : ١٣٣ . ١٣٤.

(١٠٩) البيان والتبيين : ١/٨٧.

(١١٠)التداولية عند العلماء العرب : ٣٠ . ٣١.

(١١١)ينظر علم التخاطب الاسلامي : ٨٥.

(١١٢)المعنى وظلال المعنى : ١٥٥.
(١١٣)ينظر علم التخاطب الاسلامي : ٢٥٢
(١١٤)الكتاب : ٥٥/١.
(١١٥)نظرية النحو العربي : ٨٨.
(١١٦)ينظر الوصائل في تحليل المحادثة : ٢٠٨.
(١١٧)ينظر دلالة السياق : ٥٥٩.
(١١٨)ينظر لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب :
(١١٩) ينظر قضايا إبستمولوجية في اللسانيات : ٢١٦
(١٢٠)ينظر معهود العرب في الخطاب وإشكالية قراءة النص الشرعي : ١٠
(١٢١)استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية :٦٧
(١٢٢) ينظر النحو القرآني في ضوء لسانيات النص : ١٧١
(١٢٣)ينظر الكتاب : ٢١١/١.
(١٢٤)الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي : ٦/٣
(١٢٥)ينظر الخطاب الاشتباهي في التراث اللساني : ٤١٨.
(١٢٦)التكوثر العقلي : ٤٦.
(١٢٧)الكتاب: ٣٩٣/١.
(١٢٨)أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه : ٥٦.
(١٢٩)ينظر سياق الحال في كتاب سيبويه : ٨٤.
(١٣٠)نظرية النحو العربي : ٨٥.
(١٣١)تأريخ النحو : ٢٠.
(١٣٢)ينظر الوصائل في تحديد المحادثة : ٢٥٢.
(١٣٣)الوصائل في تحديد المحادثة : ٢٥٤
(١٣٤)مراعاة المخاطب في النحو العربي : ٦٣.

(١٣٥)الخصائص : ١/ ٢٤٧ .

(١٣٦)أثر القرائن في التحليل النحوي عند سيبويه : ٢١.

(١٣٧)الكتاب :٢/١٣٠.

TS praise be to Allah, and peace and blessings be upon Muhammad al-Amin, and his family and companions. Was the old Arabic grammatical theory established criteria and fixed, and a "grammatical analysis". It can be said that analysis equals expression, in the analysis of the constituent particle compositions. The sebojh was based on on the analysis of compositions, and partitioned structures on the basis of those indications, taking into account the social aspect of the speaker in its formulation of the clause in question. Taking into account the differences in the perception of the speaker, so that the partition structures on multiple levels. Taken from a firm approach in hierarchical shape analysis, of the whole to the part. So you select search by "theory of grammatical analysis when sebojh. The fact analysis, and analysis. And then elaborated by modern linguistic context "context" and non-linguistic context "context". Separated in equation (speaker/addressee), explaining their relationship.